حوار مع المؤرخ والمفكّر هشام جعيّط

وإعادة قراءة السّيرة النّبوية

أجرى الحوار: محمّد علاقي

تقديم:

هشام جعيط، من مواليد تونس، 6 ديسمبر 1935كاتب ومؤرخ ومفكر تونسي. زاول تعليمه الثانوي بالمدرسة الصادقية، وفي سنة 1962 تحصّل على الإجازة في التاريخ. تخصص في التاريخ الإسلامي، أحرز سنة 1981 على شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة باريس. وظلّ أستاذا شرفيا بجامعة تونس وأستاذا زائرا بكل من جامعة ماك غيل مونتريال وجامعة كاليفورنيا، بركلي. يتولى منذ فيفري 2012 رئاسة مجمع بيت الحكمة بتونس العاصمة. وهو متقاعد الآن. قام بنشر العديد من الأعمال.

من مؤلفاته:

-في السيرة النبوية.3: مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، بيروت، دار الطليعة، 2014

-أوروبا والإسلام: صدام الثّقافة والحداثة، بيروت، دار الطليعة، 2007
-في السيرة النبوية. 2: تاريخية الدعوة المحمدية، بيروت، دار الطليعة، 2006
-تأسيس الغرب الإسلامي، بيروت، دار الطليعة، 2004
-أزمة الثقافة الإسلامية، بيروت، دار الطليعة، 2000
-في السيرة النبوية. 1: الوحي والقرآن والنبوة، بيروت، دار الطليعة، 1999
-الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، بيروت، دار الطليعة، 1992
-الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية، بيروت، دار الطليعة، 1986
-الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي، بيروت، دار الطليعة، 1984

تاريخ إجراء الحوار:

قمت بزيارة المفكّر هشام جعيط في منزله الكائن بالمرسى مركز الزهراء بتونس العاصمة وذلك يوم 2016/04/30. وقد أجريت معه حوارا حول مسألة إعادة قراءة السيرة النّبوية من خلال مؤلفاته في السيرة النبويّة (1) (2) (3)، وقد امتدّ الحوار من الساعة منتصف النهار إلى حدود الساعة الثانية زوالا.

أودّ أن أعبّر عن خالص عبارات الشكر والتقدير للأستاذ جعيط الذي استقبلني برحابة صدره وقبل بتواضع كبير وبكلّ سرور محادثتي، مع تمنياتي له بالصحّة والعافية.

الحوار:

-الأستاذ هشام جعيّط، ما الّذي جعلكم تراجعون كتابة السيرة النبويّة وتعيدون قراءتها من جديد؟

المسألة بسيطة، بعد أن كتبت عن الفتنة، طلب منّي أحد الناشرين الفرنسيين –وكانت لديه مجموعة من الكتب التي تناولت سيرا ذاتية لرجال عظماء في كلّ أنحاء العالم وفي مختلف العصور– أن أكتب عن شخصيّة تاريخيّة عظيمة وهي شخصية النّبي "محمّد"، وقد ترك لي الخيار طبعا في القيام بذلك، لكنّني تردّدت كثيرا لأسباب:

السبب الأوّل: لأنّني مؤرّخ ولا أريد أن أكتب بيوغرافيا للعموم؛ لأنّ المجموعة الّتي كان يمتلكها الصديق الفرنسي حول تلك الشّخصيات كانت للعموم، وليست كتابة بيوغرافية علميّة بالمعنى الدّقيق.

السبب الثّاني: كان يقلقني أن أكتب عن سيرة الرّسول محمّد لأنّني على الأقل من النّاحية السوسيولوجية مسلم، وإذا كتبت عن محمّد بصفة تاريخيّة موضوعيّة فهذا يجعلني نفسيا في حالة أزمة بالرغم من أنّني ابتعدت عن فعل التديّن، ولكن أن أكتب عن محمّد ليس نفس الشيء كأنّ أكتب عن زرادشت أو بوذا.

السبب الثالث: كون أصدقائي من المشارقة والنّاشرين طلبوا مني أن أكتب بالعربيّة لأنّني كتبت كثيرا باللّغة الفرنسيّة واعتبروا أنّه لا بأس إن كتبت للقارئ العربي مباشرة دون اللّجوء إلى الترجمة، وقد قررت في النّهاية ألّا أكتب عن "محمّد" في دار نشر المستشرقين، وكان رفضي لسببين: أوّلا لأنّني لا أكتب بيوغرافيا، وثانيّا لأنّني أودّ أن أكتب كتابا عن محمّد بالعربيّة يهمّ العرب أنفسهم ولا يهمّ الفرنسيين. فقطعت الصلة بالناشر الفرنسي وبدأت أنشر مشروع السيرة بدار الطليعة في لبنان، علما أنّه كان من الممكن أن أتوقّف عن كتابة السّيرة بعد الكتاب الأوّل لأنّه يحتوي كلّ شيء، لكن بما أنّني وعدت القارئ بثلاثية أجبرت نفسي على كتابة الجزء الثاني والثالث في السيرة النبويّة.

-ذكرت قبل قليل أنّك ابتعدت عن التديّن، لكن ما قولك في رأي المؤرّخ محمّد المزوغي الّذي يرى أنّكم حكّمتم الجانب الإيماني في كتابتكم للسّيرة؟

في الواقع كنت منذ فترة المراهقة أتساءل وأطرح الكثير من الأسئلة الميتافيزيقيّة، وكنت رجلا حائرا لكن بقي منها الشيء القليل لذلك يعدّني البعض متديّنا في كتاباتي بالرغم أنّني قمت بعمل المؤرّخ.

-لماذا عوّلتم على المنهج الأنثروبولوجي دون غيره في دراستكم للفترة المكيّة في السيرة النّبوية؟

كتبت الجزء الثّاني وهو بعيد عن الجزء الأوّل؛ لأنّ الجزء الأوّل فيه تفكير في ماهيّة الوحي واعتمدت على الأديان المقارنة؛ لأنّ العرب في اعتقادي لا يعرفون الأديان الأخرى. أمّا الجزء

الثّاني فهو تاريخي بحت ليس فيه تفكير حول مفهوم النبوّة والوحي وغير ذلك، وقد كان اعتمادي في الجزء الأوّل على القرآن فقط، لذلك عوّلت في الجزء الثّاني على القرآن كمصدر أوّلي إلى جانب كتب السيّر والتاريخ، مع نقدي لها بنقد المؤرّخ، فرفضت عددا من مقولاتها وقبلت البعض الآخر. وكان الجزء الثّاني تاريخي بالأساس اهتممت فيه بالأنثروبولوجيا التاريخيّة القديمة وقت الجاهليّة، كما اهتممت بالدّيانة الجاهليّة عند العرب وعلاقات الزواج والمحارم وكل ما يتعلّق بالجانب الأنثروبولوجي بشكل عام، لنفهم كيف وقعت التغييرات التشريعيّة والدّينيّة الّتي قام بها محمّد، وعلى سبيل المثال اهتممت بالآلهة من أين أتت وطقوس الحج ومفهوم العائلة وهو ما يدخل في منطق الأنثروبولوجيا التاريخيّة القديمة، وهي أنتروبولوجيا مسقطة على فترة قديمة وليس على الحاضر كما يفعل الأنثروبولوجيون الحاليون، لكنّ هذه الدّراسة لم تأخذ الكتاب كلّه وإنّما أخذت قسطا صغيرا منه. وما كان يهمّني أكثر هو دراسة الدّعوة المحمّديّة بمكّة حسب القرآن وترتيبه الزّمني وعلاقة الرّسول ببيئته وعشيرته والرّفض القرشي. ودرست من الناحية السوسيولوجيّة من هم أنصاره ومن هم أعداؤه؟ واعتبرت أنّ أعداءه أولئك الّذين رفضوا هذا الّدين الجديد وهم رؤساء العشائر؛ لأنّه لو تبعه رؤساء العشائر لتبعه كلّ القرشيين . وأظهرت أنّه من الصّعب أن يتّبعه أهل مكّة؛ لأنّ مكّة كانت مركزا للوثنيّة في تلك الفترة. وفي رفضهم للدّين الجديد كانت لديهم أفكار وجيهة كون مكّة هي مركز للوثنيّة وفيها طقوس كثيرة في رقعة الحجاز وقسط من نجد وبعض القبائل الرّعويّة، وأنّه حول مكّة عديد من القبائل الصغيرة لديها طقوسها المعروفة، وأنّ مكّة كانت حرما ويقصد بذلك أنّه لا يقع فيها عنف ولا هجوم من طرف قبائل أخرى لأنّها محرّمة دينيا، بمعنى أنّها محميّة من موقعها الدّيني لأنّها تحوي الكعبة.

–أنفهم أنّها محميّة بوجود الآلهة فيها أم ماذا؟

قطعا لا، فهي فقط حرام لأنّ مفهوم الحرم موجود في كلّ الديانات القديمة ولأنّها بالأساس تحوي الكعبة، كما أنّها قريبة من الأماكن الّتي يقع فيها الحجّ الأكبر، وذلك لوجود حجّان: الحجّ الّذي يسمى عمرة أي الحجّ الأصغر، والحجّ الأكبر وهو الّذي يقع في عرفة. وقد اهتممت بالوثنيّة العربيّة لأنّها مهمّة وتدخل في الدّيانات السامية الغربيّة القديمة، ولها منطق خاص بها.

وظهور دين جديد كان أمرا مقلقا كثيرا بالنّسبة إليهم؛ لأنّه يرفع عنهم مركز الحرم الّذي لا يمكن تجاوزه وهو دين الأجداد. وفي كثير من الحضارات هناك تقديس لدين الآباء. وكانت قريش تجاريّة في تلك الفترة، فكان هناك توازن في البلد ومن الصعب أن يأتي رجل منهم ويريد أن يلغي الدّين القديم ويأتي بدين جديد.

–هل للمسيحيّة تأثيرات على تكوين الدّين الإسلامي؟

اهتممت في الجزء الثاني بالتأثيرات المسيحيّة على تكوين الدّين الإسلامي، والمسيحية ديانة توحيدية رغم وجود عقيدة التثليث فيها. وكانت علاقة قريش وبالتالي محمّد أيضا بالشام في تواصل مع المسيحيين. واعتمدت على دراسة لمستشرق قديم يحسن السريانية ويحسن اليونانيّة ويعتبر أنّ كلّ ما يخصّ الفترة القرآنيّة الأولى هو إنذار باليوم الآخر، أي بالجنّة والنّار، فيه عبارات كثيرة مأخوذة عن أحد أدباء الكنيسة المسيحيّة. لكن هنا لم أشر إلى التأثير المسيحي إلاّ في هذه النقطة الخاصّة.

–هل يمكن أن نعتبر حسب ما أشرتم إليه أنّ النّبيّ محمّد قد نهل من المسيحيّة وأضاف إلى دينه؟

لا أعتبر أنّ محمّدا نهل من المسيحيّة، وإنّما بالنّسبة إليّ كمؤرّخ أقول أنّه ثمّة توازٍ بين ما قاله الآباء المسيحيون وبين ما أتى به القرآن لوصف الآخرة الإسكاتولوجيّة (علم الأخرويات)، فهناك تأثيرات من طرف المسيحيّة ولا أستطيع القول بوجود تأثيرات مسيحيّة أكثر من اليهوديّة؛ لأنّ اليهوديّة لم يهتمّ بها إلاّ في المدينة، لأنّ اليهود لم يتواجدوا في مكّة فكان بها المسيحيون من عبيد ومن العرب. اهتممت بهذا بكلّ حذر؛ لأنّ القرآن بالنّسبة للمسلمين هو كتاب اللّه كذلك الإنجيل والتوراة، وبالتالي فلا حرج لدى المسلمين أن تكون هناك عناصر تشابه بين الإسلام واليهودية والمسيحية لأنّ المؤلّف واحد وهو الله .

وفيما يتعلّق بالمؤرّخ الّذي يبتعد عن فكرة الوحي المنزّل ويدرس الأمور بصفة ظاهريّة، هناك على الأقلّ توازٍ أو تأثيرات من المسيحيّة، وأنا لا أتماشى مع ما يذكره بعض المستشرقين الجدد بأنّ محمّدا كانت له معرفة ببعض الكتب "ديكسيونار" (dictionnaire)، كتب صغيرة تلخص التسيير في المجتمع الشامي وتلخّص كلّ من العهد القديم والعهد الجديد، فمن ناحيّة، هذه الكتب

لم تصلنا ولو في شكل مخطوطات، فهذا مجرّد افتراض، ومن ناحيّة أخرى هم يلحّون منذ القديم على أنّه كان لمحمّد من يخبره لكن باعتبار أنّ تجّار قريش الّذين يذهبون كلّ سنة إلى الشام ومنهم محمّد لا بدّ أنّ له معرفة بالسريانيّة، خاصّة أنّه مهتمّ بالشأن الدّيني، وبالتالي يقرأ مباشرة دون أن يكون في حاجة إلى مخبرين؛ لأنّ العهد القديم موجود بالسريانيّة والقرآن يقرّ بذلك في قوله تعالى: " وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ" (النحل103/16). فيجيب القرآن أَنَّهُ بِلِسَان عَرَبِيّ مُبين، ولا ينكر القرآن وجود علاقة بين هذا الأعجمي الذي لا يتكلّم العربيّة مع النّبيّ ذي الاهتمامات الدينيّة، ولا ينكر القرآن أنّ محمّدا كان يتحاور مع هذا الآخر الأعجميّ، وهذا طبيعي لأنّ الرّسول كان يعرف السريانيّة ولا يحتاج إلى مخبرين، وهناك خطأ فظيع من طرف المستشرقين؛ لأنّهم كانوا يعتبرون تباعا أنّ السّيرة والهيكل الدّيني الإسلامي يعتبران ا أنّ النّبيّ نعت في القرآن بالأمّيّ، أي لا يحسن القراءة والكتابة، فهم يؤمنون بما تقوله السّير فيما بعد ولا يؤمنون بما يقوله القرآن. وأنا أعتبر أنّ مفهوم "أمّي" لا يعني أنّه لا يعرف القراءة والكتابة، إنّما هو الرّسول المبعوث إلى الأمّيين العرب الّذين لا يملكون كتبا سماويّة، فهو إذن رسول الأميّين الّذي أتى بكتاب مقدّس لذلك نعته القرآن بنبيّ الأميّين.

-لماذا غيّبتم في طرحكم مسألة أميّة محمّد الآية: "وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ" (العنكبوت:29/ 48)، **والّتي اعتبرها جمهور المسلمين تثبيت لأميّة النّبيّ؟**

هذه الآية حسب قراءتي لا تعني أنّه لا يفقه القراءة والكتابة، وإنّما تقول أنّه لم يكن يقرأ مباشرة الكتاب المقدّس "الإنجيل"، وليس بمعنى الجاهل لأبجديات الكتابة والقراءة، فهو لم يخطه بيمينه أي لم يكتبه، وليس كما يقول القرشيون كان يملي عليه صبحة وعشيّة، فالقول بأنّ محمّدا كان له مخبرين قديم مع الاستشراق وهو خطأ فظيع، والطّبري أيضا يعتبر أنّ الأميين هم العرب، أي العرب قبل الجاهليّة ويضيف في تفسيره: "لكن الإجماع اعتبر أنّ الأميين والأمّي هم من يجهلون القراءة والكتابة، ونحن نتّبع الإجماع".

وأنا أرى أنّ المسلمين لم يتّبعوا الآية الّتي ذكرتها إلاّ حين اختلطوا بالمسيحيين واليهود والزرادشتيين في العهد العباسي مثلا وحتى في العصر الأموي، فكان هؤلاء ينكرون نبوّة محمّد يهودا ونصارى وبالتالي أوّل المسلمون معنى الأميّة بأنّه لا يمكن أن يقرأ الكتب ولا يعرف شيئا عن هذه الأديان، وقالوا أنّ القرآن منزّل من اللّه بصفة حرفيّة لرجل جاهل للدّفاع منهم على فكرة كون القرآن كلّه من عند الله وأنّ النّبيّ لم يتصرّف فيه، وأنّ فكرة جهل النبيّ انتشرت لإعطاء قدسيّة لبلاغة كلام الله الّذي أتى به رجل جاهل، وهذا وقع في رأيي في الفترة الأمويّة والعبّاسيّة عندما حصل صراع بين المسلمين والنصارى واليهود ليدافعوا عن ألوهيّة القرآن وعن مصداقيّة الرّسول.

-ذكرتم في كتابكم الأوّل (الوحي والقرآن والنبوّة)، أنّه لا وجود لمكان اسمه غار حراء وأنّ لحظة التجلّي حصلت كما قدّمتها سورتي النّجم والتكوير، لكنّكم في كتابكم الثاني عدلتم عن هذا الرأي واعتبرتم أنّ السّيرة تقول بخلوة النّبي في غار حراء، وهذا يجعل منه شخصا قريبا من منهج النسّاك والصوامع وهذا سلوك ممكن جدّا، فكيف تفسّرون هذا التحوّل وكيف يمكن للقارئ أن يفهم هذا التعديل؟

كلّ ما قلته في الجزء الأوّل، أنّ القرآن لم يذكر وجود الرّسول في غار حراء وتجلّي الملك له في هذا الغار، وإنّما ذكر بكل تدقيق أنّه رأى الملك أو الإله وأنّ هذا الشخص الماورائي أوحى له في الأفق المبين.

و لم أصرّح بأنّ القرآن نزل في غار حراء، إنّما من الممكن الاعتماد على القرآن القائل بأنّ الرّسول كان يتنسّك ويتعبّد مع طائفة من المؤمنين، ومن الممكن أن يكون النّبي قبل النبوّة متعبّدا في خلوة ما، قد تكون غارا أو شيئا من هذا القبيل، لكن لم أصرّح أنّ القرآن نزل في غار.

-لقد عوّلتم في كتابتكم على جملة من الكتب الاستشراقية، لكن نجدكم تصوّبونها أحيانا أو تنقدونها، فإلى أيّ مدى يمكن أن نعوّل على كتاباتهم؟

الكتابات الاستشراقية عديدة ومتنوّعة، فمنها الاستشراق القديم الكلاسيكي في القرن 19 والنّصف الأوّل من القرن العشرين، ومنها الاستشراق الجديد المبالغ في أمور كثيرة بل واكتسى أحيانا الطابع الخيالي. وأنا أعتمد على بعض العناصر من الاستشراق؛ لأنّ المسلمين في القرن 19

خصوصا وقبل أن ينفتحوا على العالم في النصف الثاني من القرن 20 كانوا يتماهون مع دياناتهم، ولا يمكن لهؤلاء المسلمين أن يدرسوا دراسة تاريخيّة بالأنماط الحديثة؛ لأنّ الدراسة التاريخيّة تفرض مسافة زمنيّة بين الباحث والمادة الّتي يدرسها والمسلمون قليلو الاطلاع على التاريخ الإسلامي، أوّلا لجهلهم بالمناهج الحديثة، وثانيّا لأنّهم في فترة نزاع مع الغرب. أمّا المستشرقون فقد اتّبعوا ابتداء من القرن 19 مناهج التاريخ الحديث والمناهج النقدية والتيولوجية، وقد درسوا الحضارة الأوروبية وجذور الحضارة اليونانيّة ودرسوا المسيحيّة كل ذلك من الناحيّة الدينيّة، وكان هناك العديد من اللائكيين الّذين عنوا بدراسة الكنيسة. لكنّ الاستشراق الخاصّ بالإسلام كان في أروبا ضعيفا مقارنة بالحضارات القديمة. ودرس البعض منهم في أواخر القرن 19 الإسلام كما درسوا الهندوسيّة، فدرسوه من الوجهة الدينيّة ومن الوجهة الأدبيّة مثل المعلّقات، ونادرا ما درسوه في تلك الفترة من الناحيّة التاريخيّة البحتة. والبعض منهم يمكن أو بالأحرى يجب الاعتماد عليه على غرار 'نولدكه' الّذي درس القرآن من الناحيّة التاريخيّة وهذا يدخل في المناهج الحديثة. كما درسوا أيضا التوراة حسب الفترات التاريخيّة.

وقد اعتمدت على بعض أقوال المستشرقين القدامى مثل 'فلهاوزن' الّذي درس الفترة الأمويّة وله آراء باعتباره عالما، واعتمدت هؤلاء لأنّهم قاموا بأبحاث يمكن أن تنقد أعمالهم لكنّي اكتفيت بعمل المؤرّخ.

–فيما يتعلّق بالهجرة المحمّدية وخاصّة ما كتبه المجدّدون، لِمَا سكتوا عن القول بالتهجير وحافظوا على كلمة الهجرة في حين أنّ كلّ الأنبياء حصل لهم هذا التهجير؟

لقد نظروا إلى المسألة أبعد من ذلك؛ فالمعجم الشّعبي قال بهروبه، وأنا لا أعتقد هذا، خاصّة أنّ القرآن لا يقول بهروبه بل يكثر من كلمة الإخراج المتواترة أكثر من مرّة وبطرق متنوّعة، لذلك كان هناك ضغط كبير من طرف الجيل الثّاني من القرشيين؛ لأنّ الجيل الأوّل توفي، فكان جيل أبا لهب أشدّ وطأة على النّبي، فطال الزّمان وهو يدعو فوصل بهم الأمر إلى إخراجه بنصّ القرآن. وعوّلت على النصّ القرآني باعتباره النصّ الصحيح وهو معاصر للحدث. وقد تحدّثت المستشرقة "جاكلين الشّابي" عن هذا الإخراج فاعتبرت أنّ كلّ ما قيل في السّيرة عن بعثهم

لسفهائهم ليقتلوه وعن أخذ عليّ مكانه من باب الخرافة، بل اعتبرها خرافة ضروريّة لبناء الأديان. وحتّى العهد القديم فكلّه خرافات.

-لماذا تغاضى الأستاذ جعيّط عن دراسة بعض القضايا المطروحة في السّيرة مثل قضيّة شقّ الصّدر؟

لم أدرس ذلك لأنّه خيال وخرافة، ولأنّهم اعتمدوا على "شرحنا لك صدرك" (سورة الشرح- ألم نشرح لك صدرك-)، فالمقصود هنا، هو شرحه للإيمان وليس بالمعنى المادي كما ذكرها كتب السّيرة، لكن لا ننسى أنّ الأديان في الفترات القديمة مجعولة لجماعات كبيرة، والعناصر الشعبيّة دائما تربط الأديان بأمور خياليّة تعجيزيّة، وهذا ليس شأن الإسلام فقط بل شمل كلّ الدّيانات لأنّها تريد أن تدخل في قلب ضمير الشعوب. ومن ناحيّة أخرى عندما دخل الإسلام في الفترة العبّاسيّة الأولى كان للكثير من المسيحيين والزرادشتيين خرافاتهم أيضا.

وإلى اليوم يعتبر المسلم أنّ كلّ ما قاله الرسول أو نشره له علاقة بالإله وبالملائكة، وهذا موجود في جميع الأديان والحضارات، لذلك يوجد دائما فرق كبير بين المجموعة الأغلبيّة والإكليريوس، سواء الكنيسة أو الفقهاء، فلديهم الفلاسفة ويعتبرونهم نخبة الإنسانيّة، وللفيلسوف رأي خاصّ في الأمور الغيبيّة وهو رأي عقلانيّ. ورغم تباعد هذه الآراء عن بعضها البعض إلاّ أنّهم يمثّلون كتلة تاريخيّة ممتدّة من سقراط إلى هيدغر إلى اليوم، كما ابتعدت عناصر مثقّفة عن الدّين، لذلك للفلاسفة منطقهم الخاصّ ويظلّ الدّين مجعولا للعموم. وهنا أودّ أن أشير إلى قول البعض أنّ القرآن كتب بعد قرن، وهو لا يعتبر أنّ النبيّ قام بأيّة معجزة إذ يسأله أعداؤه من القرشيين بأن يأتي بمعجزات لأنّهم على علم بأنّ الأنبياء القدامى لهم معجزاتهم أو أنّ الله يتدخّل، ويذكر القرآن ما يطلبونه من قبيل أن يطلب منه مشركوا مكّة الإتيان بالله وبالملائكة وأن يفجّر العيون ويسألونه عن السّاعة والرّوح، فيجيب القرآن دائما "بمشيئة الله"، فبعد أن نقرأ القرآن كلّه من الواضح أنّ الله لم يشأ ذلك وهو ما يدلّ على أنّ القرآن كان صحيحا من الناحية الزمنيّة في فترة الرّسول، لأنّه فيما بعد نجدهم في السّير وفي الأحاديث وضعوا معجزات كبيرة، حتّى في السيّر عندما نقارن ابن إسحاق (ت150هـ) بالواقدي (ت بعد نصف قرن) نجد هذا الأخير يتحدّث عن المعجزات على الرغم من أنّ ابن إسحاق أقرب إلى منطق المعجزات منه.

–أستاذ جعيّط نحن نعلم أنّ المجتمع المكّي كان يقوم على منطق العصبيّة والأسياد، فبما تفسّر خروج أتباع محمّد عن أسيادهم؟

دعني أوضّح أنّ العصبيّة ليست الأسياد، فالعصبيّة تفرض قبيلة منسجمة ومرتكزة على القرابة الدمويّة، فتكون قبيلة منقسمة إلى عشائر ورؤساء العشائر هم سادة هذه العشائر. أمّا فيما يخصّ إتّباع بعض الفتية لمحمّد أرى أنّ هناك عناصر من الشباب دائما يتّجهون إلى ما هو أخلاقي ورفيع وما هو مثل أعلى ويتّبعون الأفكار الجديدة. وهناك أناس أصحاب عقلانيّة يعتبرون أنّ الكثير من الطقوس ليست بعقلانيّة وأنّ هذا النّبي أتى بما هو رفيع وأخلاقي، ولا ننسى أنّ الديانات الكبرى خلافا للوثنيّة؛ لأنّ الوثنيّة طقوس والتوحيدية مبنية على الأخلاق وعلى ما يمس الإنسان. وهناك أيضا ما يعرف بالعلاقات الاجتماعيّة والقرابة، وهناك من يرى أنّ الدّين الإسلامي صيغة عربيّة لما يمثّله الإنجيل من أخلاق، وهذا ما جعل له أتباع سواء من الناحيّة السوسيولوجيّة أو من ناحيّة الأخلاق والمثل العليا، لكن ليسوا بالعدد الكبير، لأنّ كبار أتباعه مثل أبو بكر وعمر لهم مراكز اجتماعيّة مهمّة على غرار سادة العشائر، فكان لعمر مركز مرموق في عشيرته لكنّه لم يتعاط التجارة إلاّ أنّه كان من المطعِمين. ولم يتّبع رؤساء العشائر محمّدا سواء من الجيل الجديد أو من جيله على غرار أبا جهل رئيس عشيرة مخزوم الكبيرة، فهؤلاء لم يتّبعوا الرّسول إلاّ أبا سفيان بعد فتح مكّة بالقوّة.

–ماذا عن المرحلة المدنيّة؟

أعتبر المرحلة المدنية من أهمّ ما أُنجز من الناحية التاريخيّة؛ فقد جاءت لتفسير عدّة أمور، منها أوّلا هجرة الرّسول إلى المدينة وعلاقتها بمشاكل المدينة الخاصّة وذلك لوجود ثلاث عناصر في المدينة، وهي الأوس والخزرج واليهود، وكانت الأغلبية للعرب من حيث العدد إذا ما قارنّاهم باليهود، كما كانت هناك خلافات وحروب بين الأوس والخزرج. والظروف الخاصّة التي كانت في المدينة جعلت الخزرج يُغلبون من طرف الأوس بمعيّة اليهود، وهو ما جعلهم يفتّشون عن شخص يمكن له أن يحكّم فيما بينهم فوجدوا هذا النّبيّ، وبالتالي فهجرة النّبي كانت من عمل الخزرج لأنّهم يفقهون معنى التوحيدية لعلاقتهم باليهود، أي كانوا حلفاء اليهود وهو ما يفسّر تأخّر النّبي مدّة ثلاث 3 سنوات عن القدوم إلى المدينة، فالأوس بعشائرها المتعدّدة ، لم

يكونوا راضين عن قدوم النّبي لأنهم اعتبروا الخزرج المسؤولين عن جلب النّبي لفائدتهم ثمّ انقلب الأمر فصار الرئيس المحترم في الخزرج سعد بن معاذ من أقرب النّاس إلى الرّسول إلاّ عشيرة واحدة كبيرة كانت تقطن بالمدينة قرب اليهود وكان فيها المتهوّدون علاوة عن كونهم من حلفاء اليهود إلى حدود الخندق عندما دمّر اليهود تماما سواء بالإخراج أو فيما يتعلّق ببني قريضة.

-لماذا ركّزتم على الجانب السياسي والعسكري للنّبي محمّد فأظهرتموه عسكريا بامتياز؟ وما هو الفرق بين السياسي والكاريزماتي؟

دعني أوضّح أنّ كاريزماتي شيء آخر؛ لأنّ كلّ نبيّ كاريزماتي، أي لا يعتمد على مؤسّسات وإنّما يعتمد على قوّة شخصيّته، فهو يجلب النّاس بالكاريزما، وليس ذلك في الدّين فقط فحتى عظماء التاريخ كانوا يتّبعونهم لأنّه لديهم شخصيّة كاريزماتيّة. لذلك يوجد فرق بين السياسة والحرب وكاريزماتيّة النّبي التي تستمد عظمتها من لدن المفارق.

ونشير أنّ أهل المدينة دخلوا في الإسلام إلاّ قلّة قليلة منهم، واعتبر النّبي نفسه بعد رفض اليهوديّة أنّه نبيّ العرب. وسيأتي العرب بتجديد ديني ومن بعده تجديد أخلاقيّ، فتجديد تشريعاتيّ، واعتبر أنّه كان يمكن أن يبقى في المدينة ومعه رهط من العرب يعلمهم دينهم، لكن في تقديري أعتبر أنّه وبإرادة من الله أراد إدخال العرب جملة في دينه وبالخصوص تدمير الوثنيّة في مكّة، وأنّ أهل مكّة كما يقول القرآن لا يمكن بعد 12 سنة من الرفض أن يدخلوا في هذا الدّين إلاّ بمنطق القوّة لأنّه الأعلم بشعبه. ودخل أهل المدينة في الإسلام لا حبا في الإسلام من الوهلة الأولى إنّما لأنّهمم يرون في شخص الرسول المخلّص لهم، فاعتبر أنّه لا يمكن أن يدخل إلى مكّة دون أن يحوز الحجاز وكلّ هذا يجب أن يكون وفق منطق الحرب، وكان يعرف أنّ اللّه سينصره.

-هل الغزوات والحروب الّتي قام بها النبيّ محمّد كانت بدافع السياسة والسيادة؟

قطعا لا؛ لأنّ كلّ ما قام به النّبي من حروب وغزوات كانت من أجل رفع راية الدّين فقط وليس من أجل تجييش جيش وفرض نفسه كقوّة عسكريّة. فنابليون كان جنرالا لكن له نبوغ خاص في الميدان العسكري، فعندما تولى الحكم إذا به يتغيّر ويصير مشرّعا كبيرا، فعندما هدّمت الثورة الفرنسيّة المؤسّسات العتيقة وعى ضرورة بناء مؤسّسات جديدة برلمانيّة وقضائيّة وتعليميّة

وماليّة وأظهر إبداعا كبيرا في ذلك، وبما أنّه عبقري حربي أراد أن يعممّ على كلّ أروبا نتيجة نبوغه العسكري، لقد كان ذا وجهين، فالرسول مثلا لديه مرونة كبيرة، فهو رجل تحت هيمنة الوحي وتحت هيمنة الانخطاف الداخلي والهوس الدّيني، ورغم ذلك كان مؤمنا برسالته.

– على عكس ما ذهبت إليه، نجد "معروف الرصافي" في كتابه (الشخصية المحمّدية أوحلّ اللّغز المقدّس) يرى بهذا الخصوص أنّ محمدا لم يكن همّه نشر الدين وإنّما كان يريد المجد والملك لعشيرته لذلك كانت له مطامح سياسية وحب الملك والسلطة. فما رأيكم؟

رغم اختلافي معه في هذه النّقطة إلّا أنّني لا أستطيع أن أنتقد الرصافي؛ فلكل منّا وجهة نظر خاصة، ورغم الاختلاف فأنا أثمّن ما قام به الرصافي من باب أنّه كانت له الشجاعة التي نعدمها في الكثيرين في إعادة قراءة التراث وخرق بعض الطابوهات التي جمّدت الفكر العربي لقرون من الزمن.

–نعود إلى الفترة المدنية، لماذا كتب النبيّ محمد الصحيفة؟

أراد الحقيقة، فالدّين الحقّ لن يدخل في أذهان العرب إلاّ بنوع من العقلانيّة، وهذه العقلانيّة تتجلّى في صحيفة المدينة وعلاقته باليهود، أي أنّه أخذ بوسائل هذا العالم. وأنا أتساءل كيف أنّ نبيّا كان في الأوّل استلابيّا في فترات انخطافٍ أيّ إكستاز يعني (هلاوس سمعية موضوعها ديني) فيما كان يتلقى الوحي، لكنه رغم ذلك استطاع وبكثير من القوة والقدرة أن يتجاوز هذه المرحلة الاستلابية ليتحوّل إلى مرحلة الفعل والانجاز.

ما الذي جعله يفكّر في إنشاء صحيفة المدينة، ألا يمكن أن نقول أنّه شرّع لبداية القوانين الوضعيّة؟

أراد من خلال كتابة الصحيفة أن ينقذ قومه من العبثيّة الدّينيّة والإسلام هو المنقذ لهم. ففي قوله تعالى: "وكُنتُم عَلَى شَفَا حُفرَة من النَّار فأنقذكم منها"، دليل على أنّ الإسلام هو منقذهم، لقد فهم أنّ هذا الأمر لا يتحقق إلاّ بالقوّة وكان من الصعب أن يكوّن قوّة كبيرة في المدينة، وضدّه اليهود وجزء من الأوس علما وأنّ أغلبيّة مسلمي المدينة اكتفوا بتقديم اللّجوء له و لم يناصروه في دينه، وبدهاء كبير استمال من لم يتبعه في مشروعه الّذي يعتبره أرفع وأوسع من أن يكون خاص بنبيّ في واحة صغيرة بل يجب أن يكون مشروعا للعالمين، فكلّ الّذين مشوا وراءه من

المدينة في فتح مكّة كان مخطّطا له لجلب أهل المدينة إلى صفوف جيشه. وقد شاركه في غزوة بدر أكثر من 200 شخص وهم آلاف، وفيما بعد كوّن لنفسه غزوة خيبر وقام بإخراج اليهود. وفيما يتعلّق بالغزوات أراد بسط نفوذه على المنطقة و لم يدعوهم إلى الإسلام فكوّن لنفسه كتر حرب أي جيشا كبيرا.

–ماذا عن ملاحقته لليهود وقتلهم؟

أراد اجتذاب اليهود لكنّهم رفضوا، وكانت لليهود تدخّلات في شأنه، يستفزّونه بها وكانت لهم علاقات مع العرب الّذين سمّاهم القرآن المنافقين فتجرؤوا عليه فخاف النّبي أن يمسّوا من انسجام الكتلة الّتي وراءه، وكانوا يشكّكونهم في اتّباعه، فاعتبرهم خطر لأنّ دينه ما زال فتيّا وجديدا لذلك عمل على ملاحقتهم والقضاء عليهم.

–ما الغاية من الغزوات التي كان يقوم بها؟

في غزوة أحد والخندق كان يريد خنق التّجارة المكيّة وقطع الطّريق نحو الشّام، وهذا ما جعل القرشيين يردون بقوّة وأرادوا استئصاله في حرب الخندق فلم ينجحوا.

وفي الحديبيّة أراد أن تتمّ الأمور بسلميّة لذلك لجأ إلى إبرام عقد معهم وهو شيء عظيم من الناحيّة الديبلوماسيّة، فصمّم القرشيون رغم ذلك على الحفاظ على إشعاعهم فعرف كيف يجذبهم وفتح مكّة بطريقة تعتبر في نظري سلميّة.

–كلمة أخيرة ؟

ختاما أقول أنّ الرّسول محمّد لم يشأ تكوين دولة وقوّة سياسيّة كما يعدّه البعض، إنّما كان هدفه هو أن ينشر الإسلام في كامل الجزيرة العربيّة.

---

*، أستاذ بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بسوسة وباحث في مرحلة الدكتوراه في اللغة والآداب والحضارة العربية، مهتم بالدراسات الإسلاميّة.

صدر حديثا

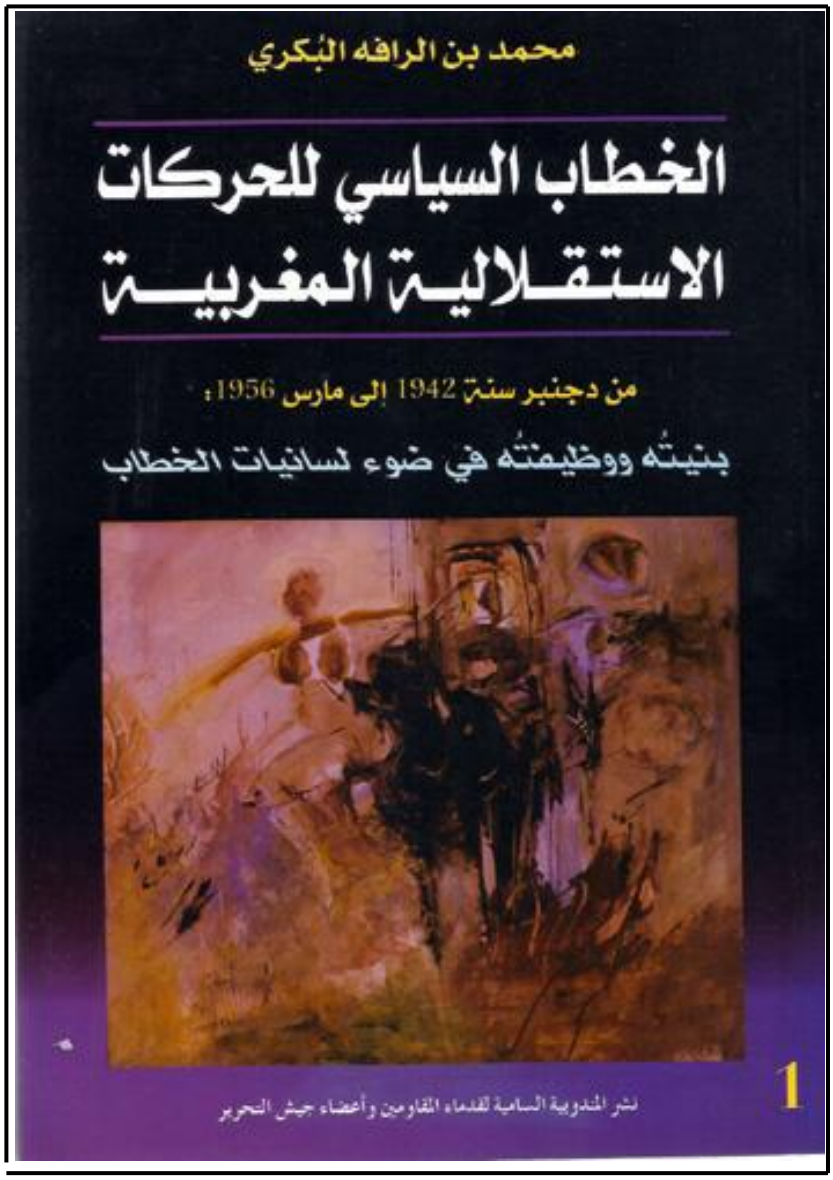
محمد بن الرافه البُكري
الخطاب السياسي للحركات الاستقلالية المغربية
من دجنبر سنة 1942 إلى مارس 1956:
بنيتُه ووظيفتُه في ضوء لسانيات الخطاب
نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير
1